

التأويل في مختلف المذاهب والآراء

روى أبو الفتح الكراجكي (ت 449هـ) بالإسناد إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «إن الله أنزل القرآن على بكلام العرب، والمتعارف من لغتها» [423]. نعم كانت لدلالة الكلام مراتب متلاحقة، فمن ظاهر سطحي إلى باطن عمقي، وعلى درجات. قال تعالى: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) [424]، كل يغترف منه بقدر ما استعد له، وأعد له من طاقات. قال الراغب الأصبهاني: «القرآن وإن كان هداية للبرية، فإنهم لن يتساووا في معرفته، وإنما يحيطون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم. فالبلغاء تعرف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه، ما جهله غير المختص بفنّه. وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم، تتزايد معرفته بغوامض معانيه» [425]. قال الإمام الصادق (عليه السلام): «كتاب الله عز وجل على أربعة وجوه: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق. فالعبارة للعوام، والإشارة للخوارج، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء» [426]. فالعبارة الظاهرة يفهمها عامة الناس وعلى مختلف مستوياتهم، فهما مقتصران على ظاهر الكلام السطحي، والإشارات توحى بدقائق المعاني، حيث يتنبه لها المتعمقون، أما اللطائف وظرائف التعبير فإنما يلمسها أصحاب القرائح الوقادة من ذوي النفوس الطاهرة (لا يمسسه إلا السالم المظاهرون) [427]. وتبقى حقائق شرائع الدين يتحمّلها أصحاب الرسائل إلى الملأ من كافة الناس.